

ولم يكن لعبدالله بن عيَّاش ولا لعمر - رضي الله عنهما - أن يزيدا شيئاً عمّا قالوا، ولذلك قال عمر في ختام ما قيل: «لا أقولُ في بيتِ اللهِ ولا في حرمِهِ شيئاً» ثمَّ انصرف.

فإنك بأعيننا:

تذكرتُ - وأنا أطوي ما بين يدي من مراجع عن مدينة رسول الله ﷺ وقد عشت في رحابها ما شاء الله لي أن أعيش - تذكرتُ حمى الله ورعايته لنبيه ﷺ في مكة والمدينة، ورأيتُ أن نتذاكر فضلَ الله على رسوله منذ نشأته ورعايته، وحفظه في جميع مراحلهِ، وذلك من خلال قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^(١) وهي سورة مكية.

وقد وُفقَ ابن عاشور في تفسيره [التحرير والتنوير] في التعليق على هذه الآية حيث قال:

«ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدد متعلقات الملاحظة، فملاحظة للذنب عنه، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة، وملاحظة لجزاء أعدائه بما يستحقونه، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به.

وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾^(٢) لأنَّ عناية الله بأهل السفينة تتعلق بإجرائها، وتجنيب الغرق عنها، وسلامة ركابها، واختيار الوقت لإرسائها، وسلامة الركاب في هبوطهم.

وذلك خلاف قوله تعالى في قصة موسى: ﴿وَلَتُصْنَعَنَّ عَلَىٰ عَيْنِي﴾^(٣) فإنه تعلق واحد بمشى أخته إلى آل فرعون وقولها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾^(٤) «^(٥).

(٣) طه: ٣٩ .

(٢) القمر: ١٤ .

(١) الطور: ٤٨ .

(٥) التحرير والتنوير: ج ٢٧ ص ٨٤.

(٤) طه: ٤٠ .

ويقول ابن عطية الأندلسي في [المحرر الوجيز]:

﴿فَأَنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه: بإدراكنا وأعين حَفَظْنَا لك وحيطبتنا.

ثم قال: وهذه الآية ينبغي أن يُقَدَّرَها كُلُّ مؤمن في نفسه؛ فإنها تُفَسِّح مضايق الدنيا.

أمَّا صاحب الظُّلال فإنني أراه قد وَقَفَ مبهوراً عند قوله تعالى:
﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث قال:

«ويا له من تعبير! ويا له من تصوير! ويا له من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان. هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كُلَّهُ، حتى بين التعبيرات المُشابهة.

لقد قيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١).

وقيل له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٢).

وقيل له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٣).

وكُلُّها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَأَنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو تعبير فيه إعزازٌ خاص، وأُسُّ خاص، وهو يلقي ظللاً فريداً أرقَّ وأشَفَّ من كُلِّ ظلٍّ.

ولا يملك التعبير البشري أن يُترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نُشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذا الظلال» (٤).

(١) طه: ١٣.

(٢) طه: ٣٩.

(٣) طه: ٤١.

(٤) في ظلال القرآن: مج ٧، ص ٢٦، ص ٤٨.

أحببت أن نعيش مع قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فتذكرت تنشأته ورضاعه، وما كان في ذلك من إيواء وتكريم من الله للوليد اليتيم.

ووجدتني مع مولد المصطفى ﷺ ومَسَقَطُ رَأْسِهِ ومنشئة في مكة، حين قدمت حليلةً السعدية مع قومها يلتمسون الرُّضْعَاءَ في مكة؛ لما يرجونه من المعروف من أهليهم، وكان أهل مكة يسترضعون أولادهم فيهم لفصاحتهم، ولصحة هواء البادية.

فأقام بينهم ﷺ نحو خمس سنين، وظهر لهم من يُمْنِهِ وبركته - في تلك المدة - أنواعٌ من المعجزات وخوارق العادات.

روى ابن إسحاق عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قال:

قالت حليلةٌ:

خرجتُ في نسوةٍ من بنى سعد، نلتمس الرُّضْعَاءَ على أتانٍ قمرَاءَ في سنةٍ شهباءٍ^(١) ومعى زوجي الحارثُ بن عبد العزى من بنى سعد بن بكر ومعنا شارف لنا ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبينا، ما في ثديي ما يُغنيه، ولا في شارفنا ما يُغذيه.

فخرجت على أتاني تلك، ولقد أذمت بالركب ضعفاً وعجفاً، حتى شق ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرُّضْعَاءَ، فوالله ما منّا امرأةٌ - وقد عرض عليها رسولُ الله - فتأباه إذا قيل لها: إنه يتييم؛ وذلك أننا إنّما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتييم! وما عسى أن تصنع أمه وجدّه؟ فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: إني والله لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه.

(١) شهباء: أي ذات قحط وجذب.

قال: لا عليك أن تفعلني، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره

قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياى - بما شاء - من اللبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا بها حافلٌ، فحلب منها ما شرب وشربتُ، حتى انتهينا رياءً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمين يا حليلة، والله إنى لأراك قد أخذت نسمةً مباركةً.. ألم ترى إلى ما بتنا فيه من الخير والبركة؟

قالت: ثم خرجنا وركبتُ أتاني تلك، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئٌ من حمُرهم، حتى إن صواحبى ليقُلنَّ لى: يا بنت أبى ذؤيب، ويحك! أربعى علينا^(١) أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟ فاقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى. فيقلن: إن لها لشأناً.

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمى تروح على - حين قدمنا به معنا - شباعا لبناً، فتحلب ونشرب، وما يحلب إنسانٌ غيرنا منهم قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعاتهم: ويحككم، اسرحوا حيث تسرح غنم بنت أبى لؤى. فيسرحون.

فتروح أغنامهم جياعاً هزلاً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والبركة، حتى مضت سنتاه، ففصلته عن الرضاعة.

(١) أربعى علينا: أى أقيمى وانتظرى وارفقى.

وقالت: وكنت لا أدخل عليه الليل إلاَّ ووجدت السقف قد انفرج، وقد نزل عليه القمر يناغيه أي: يُحدِّثه، وكان «يَشِبُّ شَبَاباً لَا يَشْبُهُ الْغُلَمَانُ. فما بلغ سنتين حتى كان غلاماً جَفْرًا»^(١).

قالت: فقدمنا به على أمِّه، ونحن أحرص شئ على مكَّته فينا لما كنَّا نتعرف من بركته.

فقلت لأُمِّه: دعينا نرجع به، فإنَّا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى رُدَّته معنا.

وبعد حَوْلَيْن من مرجعهما به، أي في العام الخامس من مولده ﷺ أتاه ملكان، فشَقَّ صدره، واستخرجا قلبه، فشَقَّاه، واستخرجا منه عَلقَةً سوداء، وقالوا: هذا حظُّ الشيطان منك. ثُمَّ مَلَّاهُ حِكْمَةً وإيمانًا.

ثم لأُمَاهُ فَالتَّامُ الشَّقُّ بِإِذْنِ اللَّهِ - تَعَالَى - ثُمَّ خَتَمَاهُ بِخَاتَمِ النَّبُوَّةِ بَيْنَ كَتْفَيْهِ كَالطَّابَعِ.

ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: زِنَهُ بِعَشْرَةِ مِنْ أُمَّتِهِ. فَفَعَلَ فَوَزَنَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: زِنَهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ، فَفَعَلَ فَوَزَنَهُمْ، حَتَّى قَالَ: دَعْوَةٌ، وَاللَّهُ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ كُلِّهَا لَوَزَنَهُمْ.

ثُمَّ قَبَّلَ رَأْسَهُ وَمَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: يَا حَبِيبَ اللَّهِ، لَمْ تُرَعْ، إِنَّكَ لَوْ تَدْرَى مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الْخَيْرِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ.

(١) جَفْرًا: أي شديدًا ممتلئ الجنين.

قال ابن إسحاق: فتخوّفت عليه حليمةٌ بعد ذلك

قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمّه، فقالت: ما أقدمك به يا ظنّراً^(١) وقد

كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟!

قالت: فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علىّ، وتخوّفتُ الأحداث

عليه، فأديته إليك كما تُحبين.

قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك.

قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها

قالت: افتخوّفت عليه الشيطان؟

قالت: قلتُ نعم.

قالت: كلاً والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإنّ لبني لشاناً، أفلا أخبرك

خبره؟

قالت: قلتُ بلى.

قالت: رأيت حين حملتُ به أنّه خرَجَ مني نورٌ أضاءَ لى قصورِ بصرى من

أرض الشام.

ذاك ما كان من حفظ الله لرسوله ﷺ نقرؤه في آيات تتلى ووقائع تُذكر

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ إِنَّهُ حَفِظَ اللهُ لِلْيَتِيمِ الَّذِي اخْتَارَهُ رَسُولاً لِلْعَالَمِينَ.

(١) الظنّ: العاطفة على ولد غيرها المرضعة له.

حَفِظَهُ فِي نَسَبِهِ، وَحَفِظَهُ فِي وِلَادَتِهِ وَنَشْأَتِهِ، وَحَفِظَهُ فِي رِعَايَتِهِ وَبِعَثْتِهِ،
وَحَفِظَهُ فِي هِجْرَتِهِ وَأَدَاءِ رِسَالَتِهِ.. حَفِظَهُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا..

وَفِي مَمَاتِهِ حَفِظَ رِسَالَتَهُ وَسِيرَتَهُ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ.

كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُنَا نَسْتَحْضِرُ قَوْلَ رَبِّهِ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شَأْنِهِ، فَلَا تَغِيبُ عَنَّا هَذِهِ الدَّلَالَةُ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ مِنْ دِنْيَاهُ أَوْ آخِرَتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ (١).

فِي هَذِهِ السُّورَةِ - مَعَ إِبْطَالِ مَا زَعَمَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ عَنْهُ - فِيهَا بَشَارَةٌ بِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْأُولَىٰ، تَبْشِيرًا لَهُ بِالْخَيْرَاتِ الْأَبَدِيَّةِ ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

وَهِيَ تَفِيدُ أَنَّ حَالَاتِهِ ﷺ تَجْرِي عَلَى الْإِنْتِقَالِ مِنْ حَالَتِهِ إِلَى أَحْسَنِ مِنْهَا. وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ (لَكَ) لَامُ الْإِخْتِصَاصِ: أَيُّ خَيْرٌ مُخْتَصِّ بِكَ، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا لَهُ تَعَلُّقٌ بِنَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَاتِهِ وَفِي دِينِهِ وَفِي أُمَّتِهِ.

فَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِأَنْ يَنْشُرَ دِينَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُمَكِّنَ أُمَّتَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَأْمُلُهَا النَّبِيُّ ﷺ.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ حَذَفَ الْمَفْعُولَ الثَّانِي لـ ﴿يُعْطِيكَ﴾ لِيُعْمَ كُلُّ مَا يَرْجُوهُ ﷺ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِهِ وَأُمَّتِهِ، فَكَانَ مَفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَعْمِيمَ الْعَطَاءِ، كَمَا أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ قَبْلَهَا جَمِيعَ الْأَزْمَنَةِ.

ثم ذكَّره الله بما حَفَّه به من الطَّافه وعنايته، في صباحه وفي قُتُوته، وفي وقت اكتهاله، وأمَّره بالشُّكر على تلك النِّعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١).

